لما رأيته رأيت القدر

(مهداة إلى « علاء » الصغير)

للآنسة جميلة العلايلي

عند ما يبتسم يتكلم القدر من بين شفتيه، وعند ما ينظر ليتأمل تشيع الفلسفة من عينيه ، وعند ما يتحرك تعلن الحياة معانيها في أسلوب رمزي فاتن

هكذا كان طفلي الحبيب « علاء » عند ما شاهد فلم « آلام فرتر » ، وقد رأيته على غير ميعاد وعرفته دون سابق معرفة ...

إنما فهمته كأنني جالسته الأعوام الطوال ، وعاشرت روحي روحه الأجيال ... جذبت روح الطفل بساحتها وحلاوتها روحي التي تشرئب دائماً إلى الصفاء الصرف والنقاء الأكيد ...

وهل يمكن أن يأخذ الصفاء مكانه إلا في معين ذلك الطفل الصغير ؟ كنت أحاول أن أطالع فلسفة الحياة من عينيه ، فكان يرى وجهه ويسبل أجفانه . فهل كان يدري أن الحقائق الأكيدة المسجلة في أم الكتاب مرقومة واضحة في مقلتيه ؟ هل كان يدري أن معاني الخلود مرسومة على شفتيه ؟ هل كان يدري أن أسرار الوجود منقوشة كظلال من النور على جبينه ؟

هل كان يدري ذلك الطفل الصغير ؟

كان يسأل والده الذي احتضنه بجوانحه ، وحباه بعواطفه ، كلما تراءت له عواطف الإنسانية في شبه صور متحركة : ما هذا ؟ ولم هذا ؟

وكان يجيبه الوالد في إيجاز عن الاسم والسبب

ويا للفارق الهائل بين فلسفة الصغير وفلسفة الكبير !

الصغير يعرف ويجهل ، والكبير يجهل ويعرف ! ...

ياحبيبي البريء، يضللك الوالد عند ما يقول لك: الحياة أمامك. مع أن الحياة فيك ...

لا تتكلم ياحبيبي ودعه يفهمك لتعرف أن الحياة تشوه العقل الفطري بأضاليلها ...

أنت الفيلسوف الحكيم ، وأنت العاطفة المثالية العليا ...

إنك تفهم أمك ، وتفهم والدك ، وتحسب أنهما شغلك فما براءتك وفلسفتك فتخاطبهما بأسلوبك الرمزي في إيجاز ...

يا حبيبي البريء ...

ما زلت تعيش في سماء الإنسانية وترتب الحياة على ضوء ذهنك الخلاب راجيا أن تسير عجلة الحياة بأمضى سرعتها لتكون رجلاً مثل من سعد بحظ أبوتك ، فهل تعرف ياصغيري ما يحمله عقل ذلك الرجل الذي دعوته في لطف وحلاوة باسم «الجدع» ؟ هل تعرف ياصغيري أنك بطفولتك النقية الملائكية أعظم منه برجولته المعقدة الآدمية ؟

هل تعرف أنك كلما زدت في أعوام عمرك عاماً نقصت من إدراك حقائق الوجود أعواماً مهما قالوا إنك غنمت ؟ ...

هل تعرف أنك بقلبك الصغير الملىء بالحب العف الطهور ، أجل منك بقلبك الكبير المليء بالحب المادي الزاخر بأباطيل الوجود؟

هل تعرف أنك أحب إلى قلب أمك وأبيك من كل حبيب ؟

وغداً عند ما تكبر يحاسبك الوالد بميزان العقل ، ويراك نداً له ، فيحبك إذا أوليته من نفسك قدر ما تطمع إليه عاطفته ، ويمقتك كأي شخص غريب إذا خالفته وخرجت عن تقاليده وأوضاعه ؛ والصلة الروحية الوثيقة التي يقبض على زمامها ملاك الأبوة في الصغر يتهاون في شدها رويداً رويداً لتشعر بأنك فرد لك حريتك وسلطتك وقلبك وعقلك ولا شأن لك بأمك أو أبيك ...

هذه هي مرحلة السعادة الأكيدة التي يقضيها الإنسان في حياته ...

سعادة الطفل بحب أبويه كاملاً

وسعادة الأهل باستسلام الصغير ...

اليوم لا يحب الطفل غير أبويه ، وغداً يحب ويحب ويحب ، وقد يكون الأهل أول ضحية تقدم على قربان الحب الذاتي

واليوم يحب الوالد طفله، وغداً يتلاشى الفارق بينهما وتؤدي المساواة رسالتها ، وقد يكون الابن أول من يحاربه الوالدان تحت تأثير عثرات أباطيل الحياة ليقيم لنفسه وزناً في عالم لا وزن له ...

يا طفلي الحبيب ... تمنيت لو أحفظ لك طفولتك وأدفع الثمن من دمي ، لأحفظ للإنسانية روح الصدق والحب والطمأنينة والسلام ...

اليوم لن تفهم ذلك الأسلوب الذي تعارف عليه الناس وأسموه أدباً لأنك لا تؤمن بغير أسلوب روحك الرمزي التي ... وغداً عند ما تصلك الحياة وتعريك أضواء الوجود ... تفهم وتدرك

وسوف تقول : ليتني ظللت طفلاً لأتمتع بحب أبوي الشامل وأحرك الشاعر بأنغامي العطرة ، وأسيِّر الأقلام بإلهامي ... ليتني ... ليتني ...

ولكن هيهات ...

فبعد أعوام ... أسمع عنك وقد أرالك ، فأجد الحياة المادية تسيرك ، وألمح روح الحياة العلوي ينسحب في بطء وحسرة ليتقمص كيان وليد جديد ...

أدام الله لك قلبك بعاطفته البريئة النقية ... ولتتصرف الحياة في كل ما تملك ... عدا قلبك ... عدا قلبك ... لتكون كأبيك تحب لتخلد ...

لما سألتَ والدك: لم مات فرتر؟ أجابك: لأنه أحب وأخفق. فابتسمت ابتسامة عميقة أعمق من فلسفة الوجود لو ارتسمت في شبه بسمة وقلت : «يعني لما الواحد يحب واحدة ولا تكونش مراته يموت» ، فضحك وقال : أجل

فهل علم الوالد أنك تفهم أكثر منه وأنك تضلله بسؤالك آه . . . لو قال لك : إنه مات لأنه حمل الحب غاية ، وكان يريد أن ينتصر في المعركة ، فلما انخذل وجد الموت مع الكرامة أشرف من الحياة مع المهانة ، لو قال ذلك . . . لارتسمت تلك الحروف في ذهنك مدى الأعوام ولصرت بطل جيلك . . .

يا صغيري الحبيب !

إني أتوسم فيك سمات البطولة

وألمح في عينيك شعاع المجد المرتقب

وأرى حركاتك بشير الصراع الحيوي الشريف . . .

فعش لأبيك ذكرى خالدة ، ولوطنك شعلة الحب والحق والحرية . . .

جميلة العلايلي

من تاريخنا النسوي

أستاذة الصحابة

للأستاذ سعيد الأفغاني

سلخت سنين في دراسة السيدة عائشة كنت فيها حيال معجزة لا يجد القلم إلى وصفها سبيلاً . وأخص ما يبهر فيها : علم زاخر كالبحر بعد غور، وتلاطم أمواج، وسعة آفاق، واختلاف ألوان . فما شئت إذ ذاك من تمكن في فقه أو حديث أو تفسير أو علم بشريعة أو آداب أو شعر أو أخبار أو أنساب أو مفاخر أو طب أو تاريخ . . . فإنك واجد منه ما يروعك عند هذه السيدة ، ولن تقضي عجباً من اضطلاعها بكل أولئك وهي لا تتجاوز الثامنة عشرة

ولست بسبيل بيان ذلك الآن ، وإنما أخبرك أني وقعت وأنا أنقب في كنوز المكتبة الظاهرية بدمشق على مجموعة خطية في آخرها رسالة نفيسة للإمام بدر الدين الزركشي الشافعي المصري قصرها على موضوع واحد هو : استدراكات السيدة عائشة على الصحابة

• • •

من خصائص المرء ذي الطبيعة العلمية أن يكون طُلَعة كثير السؤال ، لا يهدأ له بال حتى يرضى طمأنينته ويجلو لنفسه كل خفي مما يحيط به . وكانت السيدة عائشة بهذه الصفة ، ساعدها على بلوغ ما بلغت من المعرفة أنها ربيت في حجر أبي بكر الصديق أعلم الناس بأنساب العرب وأخبار قبائلها وميزات بطونها ، فحازت من ذلك علماً كثيراً . ثم انتقلت إلى بيت الرسول ومهبط الوحي فكانت أقرب الناس من معين العلم ، فغرفت منه ما لم يتيسر لأحد غيرها لمكانها منه كزوجة ، ولما تفردت به من ذكاء نادر وفكر واسع . وكلما عظم حظ الإنسان من المعرفة كثر تطلعه إلى ما فوقه . أما الجاهل فليس بمعنّى أن يبحث أو أن يسأل ، فإذا أصاب من المعرفة حظاً بطريق العرض كان أبعد الناس من أن تطلب نفسه مزيداً أو تثير له شكوكاً أو تحدثه بسؤال يسأله